خطاب الادّعاء في القرآن الكريم وانكسار الأنا البشريّة

مقاربة نفسيّة عرفانيّة

The Discourse of Claim in the Holy Qur'an and the Fracture of the Human Ego: A Psycho-Gnostic Approach

البشير عزوزي*

جامعة محمّد البشير الإبراهيمي، برج بوعريريج، الجزائر

مخبر الدراسات الأدبيّة واللغويّة المعاصرة

Elbachir.azzouzi@univ-bba.dz

تاريخ الاستلام:01-04-2026 تاريخ القبول:03-05-2026 تاريخ النشر:09-06-2026

ملخص:

الخطاب القرآني خطاب معجز في بنيته ومعانيه، كما أنّه خطاب واسع تندرج تحت خطابات متعدّدة، لكلّ خطاب منها بنيته وخصائصه وموضوعه، ومن أبرز خطابات القرآن خطاب الادعاء الذي بيّن الله تعالى فيه ادّعاء النفس البشريّة وتألّيها وعتوّها على الحقّ، ويهدف هذا البحث إلى استجلاء خصائص هذا الخطاب الذي تنوعت فيه أحوال الذوات من (أنا الاستكبار الإبليسيّة) إلى (لي الاستخفاف الفرعونية) ثمّ (عندي الجحود القارونيّة) إلى (نحن الاستعلاء السبئيّة)، هذه الخطابات التي جعلها الله مثالاً لجميع الأنفس البشريّة المدّعيّة الهالكة إلى قيام الساعة، مستعينين بالتحليل النفسيّ الإسلاميّ مستأنسين بالرؤية العرفانيّة، لنخلص في الأخير إلى أنّ خطاب الادّعاء خطاب متنوّع يبدأ بتحليل الادّعاء وبيان أسبابه ثمّ يختتم بنهاية أصحابه في مشهدين متقابلين ينقلان المتلقّي من القراءة إلى المشاهدة ثمّ الموعظة.

الكلمات المفتاحية: قرآن؛ خطاب؛ لغة؛ ادّعاء؛ مشهد سردي؛ تقابل.

Abstract :

The Qur'anic discourse is a miraculous discourse in both its structure and meanings, and it is also a comprehensive framework encompassing multiple discourses, each with its own structure, characteristics, and subject matter. Among the most prominent of these is the discourse of claim (self-assertion), through which God the Almighty reveals the human soul's tendencies toward self-assertion, self-deification, and rebellion against the truth. This study aims to elucidate the features of this discourse, in which the states of the self-range from the "I" of Satan-like arrogance, to the "me" of Pharaoh-like belittlement, then to the "I have" of Qarun-like denial, and finally to the "we" of Sabaean-like supremacy—discourses presented by God as paradigmatic examples of all self-assertive human souls destined for ruin until the Day of Judgment. Drawing on Islamic psychoanalysis and informed by a gnostic perspective, the study concludes that the discourse of claim is multifaceted: it begins with analyzing the phenomenon and its causes, and ends by portraying the fate of its proponents through two contrasting scenes that move the recipient from reading to visualization and ultimately to moral reflection.

KeyWords: Qur'an; discourse; language; claim (self-assertion); narrative scene; contrast.

*المؤلف المرسل: البشير عزوزي قسم اللغة والأدب العربي، كلية الآداب واللغات، جامعة محمّد البشير الإبراهيمي، برج بوعريريج.

المقدمة:

تميّز الخطاب القرآني الربّاني عن باقي الخطابات بلغته الرصينة وبيانه المعجز وتصويره العجيب، بالإضافة إلى الحقائق الكبرى المنطوية بين دفّتيه؛ تلك الحقائق والقوارع التي زادته إعجازاً وملأته هيبة، ولهذا فدارس الخطاب القرآني ينبغي له أن يتسلّح بسلاح اللغة والبلاغة والعلم والعقل النّظر في الموجودات للوصول إلى مخبّآت آياته وأسرار كلماته. ومن عظيم مِنَن التدبّر وعطايا التفكّر في هذا الكتاب العزيز معرفة صور الكون القائمة فيه وإدراك القوانين المحجوبة بين دفّتيه، ومن أعظم سنن الله في هذا الكون العجيب التي تجلّت في هذا الكتاب العظيم، أن بناه الله على الثنائيات اللامتناهية، (البقاء/ الفناء وسننه، الحق وأهله /الباطل وحزبه، الخير/الشر، الإيمان ومثبتاته/الكفر ودحضه، العدل/الظلم، الأمن ونعمته/الحرب والجهاد، النصر والظهور/الهزيمة والانكسار، العزّ والحقيقة/ الزيف والدّعاء، الجنة ونعيمها/ النار وجحيمها، الذكر وأحكامه/ الأنثى وأحكامها...) هذه الثنائيات وغيرها من الثنائيات التي بنى الله عليها كونه وسنّ بها سننه ثمّ أنطقها في خطابه العزيز وكتابه الخالد، فمن أدرك هذه الثنائيات أدرك جانباً كبيراً من معاني الكتاب العزيز.

وعلى هذا الأساس فالخطاب القرآنيّ الواسع إنّما هو مجموعة كبيرة من الخطابات المتقابلةِ تقابلَ السنن الكونيّة الثابتة؛ فخطاب بدء الخلق يقابله خطاب نهاية الحياة وفناء الموجودات، وخطاب الخير والصلاح يقابله خطاب الجور والفساد في الأرض، وخطاب العز والانتقام يقابله خطاب الذلّ والانهزام، وغير ما ذكرنا كثيرٌ في الخطاب القرآني العظيم، وكما أنّ الخطابات الكثيرة التي شكّلت الخطاب القرآنيّ تختلف في موضوعاتها ومضامينها، فإنّها تختلف كذلك في بنياتها اللغويّة وصورها الفنيّة وتراتبها الخطابيّ.

وسنتناول في هذا المقال خطاباً من خطابات القرآن الكريم ألا وهو خطاب **الادّعاء** الذي تعالت فيه النفس البشريّة المريضة المتّصفة بالأوصاف المهلكة فرفعت أصوات الباطل والزيف، وظهر من خلالها أعلام الظلم والوهم، هذا الخطاب الذي يعدّ لبنة مهمّة من لبنات الخطاب الأكبر، ووسيلة مهمّة من وسائل تثبيت القلوب وتربية الأنفس، كونه مثالاً صارخاً وعلامة بيّنة على أنّ الاستكبار والعتوّ والعلوّ والاستخفاف بالخلق إنّما هو ادّعاء لملك مسلوب وعزّ زائل وقوّة وهميّة، سرعان ما تدركها لحظة العدل فيتجلّى العزّ الظاهر والقوّة القاهرة، وهنا يتجلّى **خ**طاب العزّ الماثل المقابل **لخطاب الادّعاء الزائل**، خطاب العزّ الدائم والحقّ القائم، فلا يستقيم الحديث عن خطاب الادّعاء إلّا

بعد الحديث عن خطاب الحقّ والعزّ، فما هي خصائص خطاب الادّعاء؟ وما هي البنيات اللغويّة والصور الفنّية لخطاب الادّعاء؟

اخترنا نماذج مختلفة من خطابات الادّعاء التي ضربها الله أمثلة متنوّعة لسبل الادّعاء ومظاهره، فمن ذلك (أنا الاستكبار الإبليسيّة)، (لي الاستخفاف الفرعونية)، (عندي الجحود القارونيّة)، (نحن الاستعلاء السبئيّة)، هذه الأوصاف التي تبنّيناها انطلاقاً من طريقة الادّعاء ومجاله، والتي يجمعها البيت الشهير:

أَرْبعـةٌ مُهلِكَـةٌ للعبد أَنا ونحـن ولـي وعِنْدي

وسنفكّك هذه الخطابات مستعينين بالرؤية النفسية الإسلاميّة التي نراها رؤية متكاملة في النظر إلى النفس البشريّة، وكذا المقاربة العرفانيّة التي تميّز بها علماء التربيّة ورجال السلوك، متّكئين في هذا العمل التطبيقيّ على جهود المفسّرين المعروفين، لنستكشف البنية الكاملة لخطاب الادّعاء من وصف لأصحابه، ثمّ تحليل أقوالهم لغويّاً ونفسيّاً وعرفانيّاً، وفي الأخير مشاهد انكسارهم وانهزامهم في تصوير بديع لا نجده إلّا في الخطاب القرآني العزيز، وقبل الشروع في المقصود لا بدّ لنا من وقفة تمهيديّة حول الخطاب القرآني العزيز بعزّ قائله.

1/ خطاب الـ(أنا) بين عزّ الربوبية وفخر البشريّة:

وصف الله القرآن بأنّه كتاب عزيز بقوله: (وإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ) (فصّلت، الآية: 40)، وقد كاد يجمع المفسرون على أنّ العز المقصود في الآية هو أنّه «**عزيز عن المعارضة أو الطّعن، منيع عن كلّ عيب، لا يتأتّى لأحد أن يأتي بمثله، وليس لأحد أن يبطله من جميـع الجوانب، ولا يكذّبه كتـاب سابق قبله، ولا لاحـقٌ بعده**» (الزحيلي، 2009، صفحة ج12 ص568) وقد سار الزحيلي متأثراً بمن سبقه من المفسرين في التركيز على الجانب الإعجازيّ فيه وفي حقائقه، وجعل العزّة امتناع معارضته أو الطعن فيه أو تحريفه أو نسبة الخطأ إليه، غير أنّنا نجد الألوسيّ يشير إلى المعنى الذي يربط عزّة الخطاب القرآني بعزّ قائله وقوّته وقهره، فيقول : «**وأصل العزّ حالة مانعة للإنسان عن أن يُغلب**» (الألوسي، 1994، صفحة ج12، ص378) فالقرآن في كثير من خطاباته خطاب استنهاض للهمم، وعزّ للأنفس، ففي خضم الحقائق الجسام والأحداث العظام التي تكاد تضعف النفوس وتحني الرؤوس، ويدبّ الخوف وتشتّت الصفوف، في خضم هذه اللحظات الحوالك يتخلّل هذا القرآن العظيم خطاب قهر ولسان عزّ ونداء عدل يشحذ الهمم ويقوّي الأنفس ويبعث الأمل في أنّ الحقّ غالب والخير ظاهر والإيمان قاهر، هذا الخطاب الذي ينبض بالقوّة التي تُغلب ويفيض بالتحدّي الذي لا ينازع.

هذا الخطاب الذي اصطلحنا عليه **بخطـاب العزّ**، إنّه ليس خطاب فخر بشر على بشر أو قوم على قوم أو جنس على جنس كما هو معروف في موروث الخطابات البشريّة وتاريخ النصوص الأدبيّة، بل هو خطاب العزيز

الحكيم القويّ القاهر، الذي قضى في كتابه أنّ رسله هم المنصورون وجنده هم الغالبون، وأنّ ذات الله عالية مستعليّة، إنّها (أنا) الحقّ والعدل والبقاء والقهر والوحدانية، (أنا) ليست كسائر الأنا التي فكّكها الفلاسفة والنقاد وعلماء النفس، فلقد شغل خطاب الأنا فكر علماء النفس والفلاسفة وعلماء الكلام وسال حبرهم وتعدّدت تحليلاتهم ونظرياتهم التي تتّخذ من الأنا البشريّة بكلّ أحوالها ظاهرة للدراسة بما فيها من النوازع والرغبات والعقد الظاهرة منها والمكبوتات.

لهذا أردنا أن نفتتح هذا البحث بالحديث عن الـ(أنا) المقدّسة التي شغلت أغلب الخطاب القرآني، هذه الأنا التي جمعت كلّ صفات العز والقوّة والقهر والجبروت، وبالمقابل اتّصفت بصفات الرحمة والرأفة واللّطف والحلم.

إنّ المتأمّل في الخطابات الأدبيّة الكثيرة على طول تاريخ الأدب العربي والتي تبنّت موقف الفخر وهوس الأفضليّة ثمّ امتزجت بممتزج المبالغة، لم تجاوز حدّ الدفاع عن الانتماء القبلي أو القومي أو العرقيّ أو المذهبيّ، وهذا ما جعلها مدعاة للنقض وعرضة للنسف؛ فالفخر البشريّ ما هو إلاّ صراع خطابيّ وجدل فنّيّ مع ندّ يدّعي فيه كلّ طرف حيازة خصال الكمال، ويبذل قصارى فكره ومنتهى لغته في إثبات ذلك في قالب حجاجيّ وثوب إقناعيّ بديع.

ولكَم سجّل لنا تاريخ الأدب من معارك فخر يدعي فيها أصحابها خير الفضائل ومعالي الأخلاق وكمال الخلقة واستواء الهيئة، وبالمقابل يتمّ سلب هذه الصفات من الآخر وتُصبّ عليه النقائص الماديّة والمعنوية صباً.

وإذا نظرنا إلى الخصائص العامة لهذا الفخر البشري فإنّه من الخطإ الجسيم سحب هذا الوصف على الخطاب الربّاني الذي يمدح فيه الله ذاته العليّة أو يظهر فيه كمال سيدّ البشريّة صلى الله عليه وسلم وتفرّد أوليائه وأصفيائه وظهور حزبه وانتصار جنده، وبالمقابل يقرّر خسة الكفر وذل الشرك وشناعة المعصية وهوان حزب الشيطان وصغاره في صراعه الخالد مع أولياء الله الذي اتّخذوه عدوّاً ظاهراً وباطناً.

إنّ هذا الخطاب الربّاني الفريد هو خطاب عزّ لا خطاب فخر، فهو خطاب العزيز الذي لا يُغلب والواحد الذي ندّ له والصمد الذي لا يحتاج إلى غيره، فصفاته التي نعت بها ذاته العليّة لا تُنقض ولا تُسلب ولا يوصف بها إلّا هو.

هذا من جهة، ومن جهة أخرى حكم الله تعالى بعزّ رسله وغلبة أوليائه، ((**ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين إنّهم هم المنصورون وإنّ جندنا لهم الغالبون**)) (سورة الصافات الآيات: 171-172-173،) والعلوّ الدائم والعز القائم والقهر العارم إنّما هو لله ولرسله ثمّ لمن اتّبع منهج الله وسعى لرفع كلمة الله: ((**ولله العزّة ولرسوله وللمؤمنين، ولكن المنافقين لا يعلمون**)) (سورة المنافقون، الآية: 8)، وفي خطاب الله العزيز كثير من الأنباء التي تحكي انتصار الحق وانكسار الباطل، من الخلق الأوّل إلى زمان النزول، بل إلى يوم الناس هذا.

2/ الكتاب العزيز خطاب استنهاض للهمم:

تدور المعاني الأصلية لكلمة الاستنهاض كلّها في فلك بعث الهمم وشحذ العزائم، والكرّة بعد الفرّة، والإقبال بعد الإدبار، واليقظة بعد الغفلة، والقوّة بعد الوهن، فهي كلمة تمتلئ قوّة وتفيض عزيمة وتتفجّر إرادة، وعلى هذا الأساس اخترناها دلالة على خطاب القرآن العزيز الذي يدعو إلى العزّة والرفعة والقوّة والإباء وعدم الركون والخنوع ((**ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الاعلون إن كنتم مومنين**)) (سورة آل عمران الآية 139).

نقصد **بخطاب الاستنهاض في القرآن الكريم** مجموع الآيات الدافعة إلى علوّ الهمّة والأخذ بأسباب الجدّ وملء القلب بمعالي الأمور، وكذلك الخطاب الداعي إلى وجوب الاعتزاز بالانتماء لهذا الدّين العزيز ومقارعة الأعداء رفعاً لراية الدّين وتكريساً لمبدإ العزّة التي نسبها الله لنفسه ولرسله وأوليائه، هذا الخطاب الداعي إلى طرح الخلود إلى الأرض وذم اتباع الهوى، وما يصاحب ذلك من تجليات إلهية وأسرار ربانيّة تقرع السمع وتحيي الرّوح وتبعث القوّة وتنزل الرهبة، وهذا كله ممّا لا نجده في خطاب سواه، ولهذا نجد خطاب الاستنهاض في القرآن الكريم قد اختصّ بخصائص كثيرة أهمّها:

- أنّه خطاب قوّة وقهر متعلّق بذات الله بدءاً، حيث نرى فيه ألوان الاشتقاقات لأسماء الله وصفاته وتجلّياتها في سنة التدافع: فانتقمنا، فأخذناهم أخذ عزيز مقتدر، وما كان الله ليعجزه من شيء في السماوات ولا في الأرض، كلّ من عليها فان ويبقى وجه ربّك ذو الجلال والاكرام، ... وغيرها من الآيات التي قضت بعزة العزيز وجبروت الجبار وقهر القهار جلّ جلاله وتقدّست أسماؤه.
- يدعو خطاب الاستنهاض القرآني إلى طلب العلم ((**اقرأ بسم ربّك الذي خلق**)) العلق، الآية: 01، والسعيّ لفك الملغوز واكتشاف المحجوب ((**قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون**)) سورة الزمر، الآية: 10، وأقرب الناس إلى الله حالا هم أعرفهم به وأعلمهم به ((**إنّما يخشى اللهَ من عباده العلماءُ**)) سورة فاطر، الآية: 28، فالعلم يربّي النفوس على معالي الأمور وينزّهها عن السفاسف ونفل الفعل والقول، وهنا تجد الإشارة إلى أنّ أوّل ما نزل من السماء على خير أهل الأرض إنّما هو خطاب استنهاض ((**اقرأ بسم ربّك الذي خلق**))، وبعده في النزول مباشرة ((**قم فأنذر**))، فالقرآن العزيز خطاب علم وعمل وجهاد وسعي لنيل المعالي في الدنيا والآخرة.

- من خصائص خطاب الاستنهاض في الكتاب العزيز الدعوة إلى إعمال العقل وتحريره من القوالب البشريّة الجاهزة، ولَكَم مدح الله أصحاب العقول الوقادة، وفي عدّة مواضع يصرّح الله أنّ دقائق الحِكم وخلاصات العِبر وأسرار الآيات والمخلوقات إنّما هي موجّة لذوي العقول ((**إنّ في ذلك لآيات لقوم يعقلون**)) ((**إنّ في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد**))، وحسرة الخاسرين يوم الجزاء والوعيد تنبئ عن تفريطهم في إعمال العقل ((**وقالوا لو كنّا نسمع أو نعقل ما كنّا في أصحاب السعير**)) (سورة تبارك، الآية: 11)، فركود العقل وجمود الفكر ألقى بهم في عذاب السعير، بل عدّ الله التفريط في استعمال العقل ذنباً يستحقّ دخول السعير، لذلك أعقبه الله مؤكّداً جرمهم ومقرّرا حسرتهم بقوله: ((**فاعترفوا بذنبهم فسحقاً لأصحاب السعير**)) سورة الملك، الآية: 12.
- يتفنّن في ذكر أنباء أصحاب العز الوهميّ وكيف اصطدموا بقهر الله وجبروته، وانتهى بهم الحال عبرة وآية، وكلّ ذلك في ثوب خطابيّ ونموذج سرديّ بديع، وانظر إلى هذا الملخّص القرآني البديع الذي يخلّد الله فيه أئمة الظلم والتكبّر والعتوّ والفساد في الأرض ((**فكلّاً أخذنا بذنبه: فمنهم من اَرسلنا عليه حاصباً، ومنهم من اَخذته الصيحة، ومنهم من خسفنا به الاَرض، ومنهم من اَغرقنا**)) سورة العنكبوت، الآية: 40.
- نصر الله رسلَه وأولياءه بعد الامتحان والتمحيص، وفيه نرى الوصف الإلهي يبدع في وصف لحظات الانكسار والضعف، في مشهد وصفيّ إعجازي، لا مثيل له ولا نظير في شعر ولا نثر، ((**إذ جاؤوكم من فوقكم ومن اَسفل منكم، وإذ زاغت الابصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنّون بالله الظنونا، هنالك ابتلي المومنون وزلزلوا زلزالاً شديداً**)) سورة الأحزاب، الآيتان: 10-11. فانظر إلى الإعجاز في وصف ذروة الخوف وأقصى درجات الحيرة، ثم يختتم المشهد بوصف بارع للنصر المؤزّر والعز المكين وانكسار شوكة الآثمين واليهود الناكثين ((**وردّ الله الذين كفروا بغيضهم لم ينالوا خيرا**))، سورة الأحزاب، الآية25، ويضيف الله مغنما مادّيا مكافأة للنصر وجزاء للثبات، ((**وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضاً لم تطئوها، وكان الله على كلّ شيء قديراً**)) سورة الأحزاب، الآية: 27.
- استعمال أدوات الحث وأساليب الحضّ ((**ألا تقاتلون قوماً نكثوا أيمانهم وهمّوا بإخراج الرسول**)) سورة التوبة، الآية: 13، ((**انفروا خفافا وثقالا وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله**))، سورة التوبة، الآية: 41. ومن ذلك الإنكار على أنفس اطمأنت للحياة واستأنست بالدنيا وآثرت الراحة، وهذا كلّه من أعظم أسباب الخذلان والخسران ((**أرضيتم بالحياة الدنيا**)) سورة التوبة، الآية: 38. وسمّيت سورة التوبة

بالفاضحة لأنّها خطاب آنيّ فضح النفوس الضعيفة وكشف القلوب المتقلّبة وعرّى الشخصيات المتخلّفة عن صفوف الإقدام مع الرسول عليه الصلاة والسلام، وهتك ستر الجبناء الذين انصرفوا حال نزولها واحد تلو الآخر، ليعلن القرآن الكريم أن لا مكان للضعفاء والمتردّدين، فالدين دين نهوض وعزّ وقيام.

- بعث الأمل في نفوس المؤمنين بذكر تداول الأيام وسرعة زوال سلطان الظلم ودولة الكفر، فـ((**كم من فئة قليلة غلب فئة كثيرة بإذن الله، والله مع الصابرين**)) سورة البقرة، الآية: 247.

3/ عزّ الوليّ وخيبة الدّعيّ:

قضى الله في كتابه أن ((**الأرض لله يورثها من يشاء من عباده**)) سورة الأعراف، الآية: 127، وبيّن في موضع آخر أن أصحاب الوراثة هم عباد الله الصالحون الذي علم الله فيهم الخير للبلاد والعباد ((**ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون**)) سورة الأنبياء، الآية: 104، ففي كلّ زمان يخلق الله لهذه الأرض أهلها الذين يحرّرون عباده من قيد المتكبرين ويعتقونهم من سلطان المتجبرين، ولا تتأتّى هذه الوراثة إلّا بعد تسلّط الظلم والبغي، لتظهر قيمة العدل وتتبدّى نعمة الإسلام.

لقد أبدع الخطاب القرآني العزيز في التأصيل لهذا المشهد الكوني العجيب، ولعلّنا لا نجد خطاباً بشريّا استطاع ترتيب الأحداث وتنسيق المشاهد كالذي نجده في القرآن الكريم، فالله عز سلطانه يبسط القول في وصف الظلم وأهله، ثمّ يصف مشهد المكبّلين به وما لحقهم من ألوان الأذى المادّي والمعنوي، ثمّ يختتم المشهد بفناء الظلم وذلّ أهله، وفي المبحث الموالي نعرض لنماذج لنفوس بطلة في قصص الظلم والادّعاء.

أ/ صفات النفس البشريّة وسرّ الادّعاء:

تحدّث القرآن الكريم عن النفس البشريّة ووصفها بدّقة وصنّفها صنوفاً وأنزلها منازل، ولَكَم أبدع فلاسفة الإسلام في تصنيف النفس البشريّة في ضوء الخطاب القرآني المتراتب الذي لا يترك قضيّة ولا ظاهرة ولا دعوى إلى ويبيّنها بخطاب يراعي عقول المخاطبين ويأخذ بالحسبان أحوال المتلقّين، ففي خطاب النفس نجد القرآن يبدأ من حضيض الأنفس وخصائصها وعواقب أهلها إلى الأنفس النورانية التي غلب عليها النور واختفى منها التراب، ولذا آثرنا أن نبني دراستنا على من نظروا إلى النفس البشريّة من منظور إسلامي يستند إلى خالقها؛ فهو أعرف بها وبما يصلحها أو يفسدها، مبتعدين عن الدراسات النفسيّة المعاصرين كونها تعزل النفس عن الغيب وتصفها بالعيب وتفصلها عن الوجود، ويمكن أن نجمل أظهرَ عيوبِ الدراسات النفسيّة المعاصرة في النقاط التالية: (غليظ، 2014، الصفحات 30-32)

- أنّها على غير وعيٍ بالإنسان الكامل، الذي أتقن كلّ علاقات الحياة، وانصرفت إلى دراسات نوازع متفرّقة وسلوكات معيّنة، فانتهى بها الأمر إلى نتائج جزئيّة وغير دقيقة، بل خاطئة في كثير من الأحيان.
- أنّ معظم هذه التحليلات النفسيّة لا تفرّق بين الحالات السويّة وغير السويّة، واحتكمت إلى الواقع الغربيّ الذي لا معيار فيه للانحراف والاستقامة.
- أنّها قطعت العلاقة بين النفس وخالقها (الله)، فعلى الرغم من أنّ هذه الدراسات حاولت أن تدرس كلّ العوامل المؤثّرة في النفس إلّا أنّها عزلتها عن الله، وانغلقت في أغوار النفس وتخومها، ممّا أدّى إلى بناء تصوّر مشوّه عن النفس البشريّة بصفة عامّة.
- الندم والإحساس بالذنب عقدة، والصبر قمع للشهوات، وهذا كلّه فهم قاصر قائم على ربط النفس بالنفس أو بالبيئة بعيداً عن الله تعالى، فالندم فطرة سويّة والصبر قوّة وعزيمة.
- الطيبة والصفح في نظر الدراسات النفسيّة تخاذل وسلبيّة.
- شوّهت الدراسات النفسيّة الشخصيّة الإنسانيّة ومثّلتها غرائز مختلفة تنتج عنها سلوكيات غير مضبوطة، قد تحتكم إلى البيئة فقط.
- الذنب والخطيئة لا يفعلها لا يفعلها الإنسان بإرادته، بل مغلوب على أمره، وهذا يناقض مجموع الآيات التي تثبت الخيار للإنسان في أفعاله من فجور وتقوى.

من هنا صار لزاماً على الباحث أن يعيد النظّر في كثير من المسمات التي لطالما اعتُمدت في فهم الخطابات وتحليل السلوكات، وتأثّر بها النقاد والمفكرون العرب في العقود الأخيرة، سيما ما أتى به فرويد ومن تأثر به، فالرجوع إلى علماء الإسلام الذين نظروا إلى النفس البشريّة نظرة متكاملة بمقاييس كونيّة ودينيّة تربط النفس بوجودها وخالقها، ممّا يُفضي إلى تقويض كثير من النظريات النفسيّة المعاصرة. ففلاسفة الإسلام وعلماء الكلام وأهل التربية ورجال السلوك قد غاصوا في تخوم النفس البشريّة مستهدين بهدي الوحيين مستنيرين بنور الفتح، ومن بديع ما نجده عندهم أنّ النفس تعتريها أنواع من الأوصاف كما يلي: (الدجوي، 1914، صفحة 74)

- الصفات السبعيّة: فإذا غلبت على الإنسان ارتكب أفعال السباع من تعدّ وضرب وتهجّم وعداوة، صعبت أُلفته واتّقاه الناس كما تتقي السباع.
- الصفات البهيميّة: وتهيمن هذه الصفة على الإنسان من تسلّط الشهوة عليه فيرف في تعاطي الشهوات التي يشارك البهائم فيها من مأكل ومشرب وغريزة، فيقلّ قدره وتنحطّ قيمته فيحتقر كما تحتقر البهائم.

- الصفات الربانيّة: ولعلّ الرَّبّيّة أو الربوبيّة أقرب، كون الربانية محمودة في كلام رب العالمين (ولكن كونوا ربّانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون)، ولعلّ الدجوي سبق به القلم، فالذي أراده من هذا الوصف هو طغيان الربوبيّة على النفس فتلبس ثوب الاستعلاء والتكبّر والاستبداد والرياسة ويدّعي لنفسه التفرّد بالعلم والمعرفة والاستغناء والقوّة.
- الصفات الشيطانيّة: والتي إن غلبت علة النفس دعتها إلى العصيان والحيلة والمكر في الشرّ وتقمّص ثوب الخير للشرّ، والإفساد والتفريق.

وقد استمدّ الدجوي هذا التقسيم من أبي حامد الغزالي في رسالته كيمياء السعادة التي فكّك فيها النفس البشريّة تفكيكاً عجيباً، غير أنّ الدجوي أسقط وصفاً خامسً هو:

- الصفات الملائكيّة: وتظهر هذه الصفات في الإنسان عند مشاهدة الجمال والتعلّق بالحضرة والتنزّه عن الشهوات والترفع عن النزوات، وتغليب جانب النور عن التراب والسلوك إلى طريق الحضرة والمجاهد من أجل المشاهدة. (الغزالي، الصفحات 74-76)

لقد أبدع علماء الإسلام وأرباب السلوك في معرفة النفس البشريّة وإدراك ما يتخطّفها فيهلكها، فانبروا إلى تربيتها بألوان المجاهدات وعلّقوها بأنوار المشاهدات للتخلّص من الأوصاف المهلكة وإلحاقها بأوصاف الكمال ومراتب الجلال، ومن أهمّ أبواب علاج النفس تعريفها بما يهلكها فتتقيه وتفرّ منه، فما هلكت النفوس وما سقطت الأمم إلّا بما غلب على نفوسها من الأوصاف السابقة. والنماذج التي سنمثّل بها غلبت عليها الأوصاف الشيطانيّة والربوبيّة والسبعيّة، وهي كلّها مهلكة مدعاة لانتقام الله العزيز الجبار.

لقد فتح الخطاب القرآنيّ العقول على هذا الأمر العظيم تربية للنفوس وتبصرة للعقول وتحذيراً للبشر فقصّ الله عزّ وجلّ نبأ ذوات بشريّة وشخصيات عناديّة قضى الله أنّها أئمة الكفر وأعلام الاستكبار، بدءاً من إبليس إلى فرعون وقارون ومستشاري الملكة بلقيس، هذه النماذج التي تتكرّر في كلّ زمان **فـ(أنا)** الاستكبار والنرجسيّة الإبليسيّة، **و(نحن)** الغرور والاستعلاء السبئيّة، **و(لي)** الاستخفاف الفرعونيّة **و(عندي)** الجحود الماديّة القارونيّة:

((أربعة مهلكة للعبد أنا ونحن ولي وعندي))

هذه **البنى اللغويّة الصغيرة العجيبة** هي التي حكت أحوال شخصيات وأقوام وحدّدت مصائرهم، فلخّصت قصّة من طغوا في الأرض وأظهروا فيها الفساد وأعلنوا العناد وخلعوا ربقة العبوديّة، لغة بسيطة وخطاب واسع يستوجب آليات كثيرة لتفكيكه واستنباط مكامن الإبداع فيه.

1/ خطاب "أنا" الاستكبار الإبليسيّة:

هي شعار إبليس الذي تمرّد عن أمر الله وخرج من زمرة الطائعين المخبتين، ((**أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين**)) سورة ص الآية: 75 ليأتيه خطاب العزّة ونداء الجبروت ((**اخرج منها مذؤوما مدحوراً**)) سورة الأعراف الآية: 17، ((**قال فاخرج منها فإنك رجيم، وإنّ عليك اللعنة إلى يوم الدّين**)) سورة الحجر الآيتان: 34-35. هذا الفخر الإبليسيّ الزائف وهذه النرجسيّة الشيطانيّة المفرطة ما لبثت أن اصطدمت بالعز القاهر والسلطان الظاهر، لتكون آية بيّنة ودليلاً خالدا على زوال الممالك الإبليسيّة سواء أكانت ممالك ماديّة أم معنويّة.

2/ لي الاستخفاف الفرعونيّة:

وفي مثال آخر عن تحطّم قوى الشرّ وتهاوي ممالك الطغيان (**لي الاستخفاف الفرعونيّة**) هذه العبارة التي نادى بها إمام من أئمة الكفر وسلطان من سلاطين الاستكبار ((**أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي، أفلا تبصرون**)) سورة الزخرف، الآية: 50. لقد كرّر الله ذكر هذا الذي استخف قومه فأطاعوه وأذعنوا له وشايعوه في مواضع كثيرة من خطابه العزيز، مثالاً لأعلى درجات العزة الوهميّة التي بنيت على استخفاف النفوس الضعيفة واستعباد الأجناس الطريدة[1].

لقد أبدع الخطاب القرآني في رسم صورة الطغيان والاستكبار لفرعون خلال كثير من سور القرآن مكرّرا تارة ومفصّلا أخرى[2]، وكيف نافس اللهَ في كبريائه ونازعه في عليائه مدّعيا ملك أرضه وسمائه، إنّها شبه جملة الملكية (**لي**)، بنية خطابيّة لخصّت جشع الذات البشريّة التي عميت عن الحقيقة وتمرّدت عن الطبيعة، ونافست العز الذي لا يُرام والملك الذي يُضام، وتباهت بجريان الأنهار من تحتِها وادّعت أنّ عزّ مصر من نحتِها، فاصطدمت بخراب سوقِها وجريان البحر من فوقِها وانتهت بتمرّد رعيتها ونفوقِها. وصارت مثالا خالدا وآية بيّنة لزوال ممالك الطغيان الظالمة التي لاقت المصير نفسَه، معلنة أن الكفر أحمق؛ يحفر رمسَه ويجهل يومه وأمسَه.

3/ **عندي الجحود القارونيّة:**

وغير بعيد من فرعون يبرز شعار آخر (**عندي القارونيّة**)، قارون: هذه الشخصيّة التي وهبها الله المال العجيب والثراء الفاحش، ولكنّه سلبها الإيمان الخالص والعقل الفاحص، فانسلخت من ربقة الاستخلاف الإلهيّ ونكفت عن العطاء الربّاني، ثمّ ارتمت في أحضان العبوديّة النفسيّة وتكبّلت بالأوهام الماديّة، ونادت بأعلى صوتها ((**إنّما أوتيته على علم عندي**)) سورة القصص، الآية: 78، فخرج على الضعفاء في كامل زينته متباهيا بمفاتيحه متكبّراً على الخلق

---

[1] – نقصد جنس بني إسرائيل الذين تسلط عليهم فرعون وسامهم سوء العذاب وألوان العقاب.

[2] – ينظر للاستزادة والتفصيل: امحمّد صافي المستغانمي، **تصريف القول في القصص القرآني، دراسة بلاغية تحليلية لقصة موسى عليه السلام**، دار ابن كثير، ط1، 2018.

متمرّداً عن الحقّ، لتحلّ عليه ساعة العدل ولحظة الانتقام و((الله عز وجلّ إذا أعطى أدهش وإذا أخذ فتّش)) كما قال العارفون به وبصفاته وشؤونه ((**فلمّا نسوا ما ذكّروا به فتحنا عليهم أبواب كلّ شيء، حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون، فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين.**)) (سورة الأنعام، الآيتان 45-46.)

4/ نحن الاستعلاء السبئيّة:

وفي مشهد استكباريّ بشريّ آخر يبرز فيه **الأنا الجمعيّ**، الذي يكشف التواطؤ على الكبر والاتّفاق على العتوّ، وذلك في شعار استكباري وحال ترفّعي (**نحن السبئيّة**)، فلمّا تفجّرت حكمة الملكة بلقيس وتجلّت في مبدأ التشاور، قوبلت بنفوس لم يخالطها الإيمان ولم يلامسها العرفان فكانت لسانا للشيطان، ويداً للطغيان، فنادت ((**نحن أولو قوّة وأولوا بأس شديد**)) سورة النمل، الآية: 33، لتدركها عظمة القوّة الربّانية وحقيقة البأس الموهوب من العزيز الوهاب لعباده المؤمنين الذين سخروا العطاء الإلهيّ لخدمة البشريّة ونشر العدل والتسامح في أرض الله سبحانه، لقد انتهى الأمر بهذا الجمع المستكبر المدّعي بين يدي سليمان عليه السلام خليفة الله في زمانه ويد الحق التي ملكت الجنّ والإنس والطير فهم يوزعون.

5/ نحن الادّعاء اليهوديّة:

وفي مشهد يتفجّر زيفاً ويشتعل ادّعاء تبرز لنا تلك (**النحن اليهوديّة**) التي ملأت العالم زيفاً وادّعاء واجتمعت فيها جميع الأوصاف الإبليسيّة والقارونيّة والسبئيّة والفرعونيّة لتمثّل النموذج الكامل للادّعاء من زمن موسى عليه السلام إلى يوم الناس هذا. هذه ال(نحن) خطّت خطوطا من الباطل على مرّ الزمان وكتبت سطوراً من البهتان في كلّ مكان استنكفت عن كلّ نعمة وانسلخت عن آيات الله سبحانه.

ب/ (نحن) اليهود بين بَرَكة المرحلة وزيف الادعاء:

لقد أثبت القرآن الكريم أن فتح الله على اليهود إنّما هو فتح مرحليّ وابتلاء إلهيّ وامتحان ربّانيّ، فالله سبحانه أدهشهم بالعطاء الماديّ والمعنويّ وأكرمهم برسول من أولي العزم عليهم سلام الله جميعاً.

ولقد قصّ الله سبحانه وتعالى تفاصيل ابتلائهم بهذا الإكرام والتفضيل، (الآيات من 13 إلى28) وفي هذا الخطاب ترتيب عجيب؛ حيث بدأ بإعلاء شأنهم وأخذ العهد عليهم وتفضيلهم على أهل زمانهم وخصوصية كثرة الأنبياء منهم وانتهى الخطاب بنهاية صادمة وحقيقة صارمة ((**فلا تأس على القوم الفاسقين**))، إنّ هذه المؤهّلات والهبات تؤهّل كلّ أمّة لأن تملك الأرض وتملأ الكون، ولكنّها صادفت قلوبا مريضة ونفوساً ضعيفة، نفوس تألّت على الله وأساءت الأدب في حضرته القدسيّة واعتدت على ذاته العليّة، وأي ادعاء كادّعاء البنوّة لله الفرد الصمد الذي لم

يلد ولم يولد ولم يكن له كفؤاً أحد، لقد ادعوا أنّهم أبناء الله وأحباؤه، فأجابهم الله ((**بلَ اَنتم بشر ممن خلق يغفر لمن يشاء ويعذّب من يشاء**))، ورغم ذلك اصطفاهم الله لدخول الأرض المقدّسة التي كتب الله أنّهم داخلون لها في سابق علمه، ولكنهم دفعوا موسى وأخاه للقاء العدوّ بخطاب ينضح حمقاً ويقطر وقاحة لنبيّ الله وربّه سبحانه، ((**اذهبَ اَنت وربّك فقاتلا**))، إنّ هذا الفشل الذريع الذي انتهى به زمن التفضيل ومرحلة البركة هو سلسلة من الفشل في تاريخ هؤلاء القوم الذين، ذلك التاريخ المضرّج بدماء الأنبياء والأولياء، تاريخ يثبت طول اليد في الباطل والصدّ عن سبيل الله، وقصرها في الحق والجهاد مع الأنبياء والأصفياء، وما امتحانهم مع طالوت بعد فترة إلّا دليل بيّن وحجة صارخة على جبن القوم وخذلانهم، وأنّ التولّي يوم الزحف وصف ملازم وخلق قائم في أمّة لا تقدّر عطاء ربّ ولا صحبة نبيّ ولا تضحية فاضل.

ج/ الأرض المقدّسة والقلوب المدنّسة:

الخطاب القرآنيّ وهو برتبّ الأحداث ويوصّف الوقائع لا يدع قولاً لمتقوّل ولا ظنّا لظانٍّ، وتفكيك خطاب الأرض المقدّسة وما جرى في أكنافها يبيّن غاية البيان أن اختيار اليهود واصطفاءهم لدخول الأرض المقدّسة إنّما هو مرحلة مباركة لم يقدّروها حقّ قدرها، فالله عزّ وجلّ طهر بقاعاً وقدّسها ثمّ نزّهها عن النجس البشري ((**إنّما المشركون نجَس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا**)) التوبة، الآية: 28، فلا تعمر إلّا بالإيمان والعمل الصالح والنفوس السليمة والفطر المستقيمة، والتاريخ يثبت جولات الطهر والرجس على تلك الأرض المقدّسة، وأنّ أنوار الطهر مهما فترت أو خبت إلّا أنّ وعد الله صدق وحكمُه حقّ، ولنا في تاريخ الإسلام ملاحم عظيمة في بيت المقدس صنعها أولياء الله من كلّ قطر، أولئك الرجال الذين آمنوا بوعد الله وصدقوه وجاهدوا لتحقيقه ونيله. وأنّ أسباب النصر لا تتكئ على الماديات وكثرة العدد، وإنّما قلوب طاهرة وأنفس عظيمة تسير إلى النصر بثقة وأمل لا يخيب، فقد مرّ معنا في السطور الماضيات نماذج علت واستعلت ثمّ انتهت آياتٍ وعبر، وكم من فئة قليلة صادقة صابرة مؤمنة محتسبة غلبت فئة كثيرة باغية على العباد عاتية عن أمر ربّ العباد.

إنّ ما يحدث اليوم في الدّنيا وما يجري على مسرح العالم لمرحلة تاريخيّة حاسمة ممهّدة لعهد الطهر الأبديّ والنصر الدائم والعزّ القائم، الراسخ في خطاب الاستشراف الذي تنطق به آيات القرآن الكريم، فالملاحم التي تصنعها القلوب العظيمة والنفوس المقدّسة التي قدّمت دروساً في الإيمان والثبات والصبر، تثبت أنّ الله يهب العز لمن يشاء من عباده، وأنّ الله ينصر دينه ومقدّساته بالأنفس الملائكيّة الكاملة العزيزة التي قضى في سابق علمه أنّها قليلة في كلّ زمان ومكان، وإذا كان من كمال الإيمان بأنّ المستقبل لهذا الدّين بعزّ عزيز أو بذلّ ذليل مصداقاً لقول الله تعالى: ((**وليدخلوا المسجد كما دخلوه أوّل مرّة وليتبروا ما علوا تتبيرا**)) (سورة الإسراء، الآية: 07). وعد الله لا يخلف الله وعده،

هذا الوعد العظيم الذي يبعث الثبات في الأنفس المليئة بالإيمان، إيمان العزّ والإباء، وكأنّي به نوراً ينبعث في ظلام الألم وعواصف الخذلان، نوراً يصل نور القلوب بنور الموعود.

خاتمة:

في خاتمة هذا البحث الذي خضنا فيه غمار تحليل الخطاب القرآني في منهجيّة تطبيقيّة خالصة ندعو إليها ونشجّع عليها، ننتهي إلى النتائج التالية:

- القرآن الكريم خطاب واسع تندرج ضمنه خطابات كثيرة تتنوّع بتنوّع مقاصد القرآن وقضاياه وأحكامه، ولكلّ خطاب من هذه الخطابات خصائصه اللّغويّة والتصويريّة والمنهجيّة.
- ينبغي لمحلّ الخطاب القرآنيّ أن يتزوّد بزاد معرفيّ منوّع من تفسير وفلسفة ولغة وثقافة.
- ممّا يساعد على فهم الخطاب القرآني تحديد الخطاب المقابل له، لأنّ القرآني مثاني وتقابلات، لا يكمل إدراك خطاب إلّا باستحضار الخطاب الذي يقابله.
- خطاب الادّعاء خطاب مهمّ في القرآن الكريم ضرب الله فيه الأمثلة عن نماذج العتوّ والاستكبار والجحود للاعتبار وتربية النفوس وتثبيت القلوب.
- من خصائص خطاب الادّعاء أنّه نابع من نفس مريضة حادت عن بشريّتها فنافست السباع ولبست ثوب الشياطين ونازعت الربوبيّة.
- الأنا هي شعار خطاب الادّعاء والبنيّة اللغويّة البارزة فيه، وكلّ التحولات نابعة منها متفرّعة عنها كـ: لي، وعندي، ونحن.
- يبنى خطاب الادّعاء على وصف أوّليّ لبيان حال القوّة المؤقّتة للمدّعي، وصف ماديّ ومعنويّ، ثمّ حكاية الخطاب الدالّ على العتوّ والمروق من ربقة العبوديّة، ثم نقل المتلقّي إلى جوّ المشاهدة التي يبدع فيها الله في وصف النهايات في مشاهد ماثلة رأي العين تحكي سقوط رايات الادّعاء، في خطاب ربّانيّ يمتلئ بالعوة والقهر دون انتظار للعواقب ولا خواف من النتائج (فلا يخاف عقباها).
- تنوّعت خطابات الادّعاء من ماديّة ومعنويّة وعنصريّة، فرديّ وجماعيّة لتشمل جميع صوره ولتكون صالحة لكلّ حال وزمان ومكان.
- في خضمّ خطاب الادّعاء وهول البلاء وسواد الوصف واشتداد الحبكة يسطع نور الأمل ويتحوّل الخطاب من خطاب ادّعاء واستكبار إلى خطاب عزّ وانتصار.

- يستحقّ الخطاب القرآني دراسات تقابليّة تجمع بين الثنائيات الخطابيّة كالثنائية التي كانت محلّ دراساتنا وغيرها من الثنائيات.

قائمة المراجع:

القرآن الكريم برواية ورش عن نافع، (2022)، المؤسّسة الوطنيّة للفنون المطبعيّة، الجزائر.

أبو الثناء الألوسي. (1994). *روح المعاني في تفسير القرآن والسبع المثاني*. بيروت: دار الكتب العلمية.

أبو حامد الغزالي. (بلا تاريخ). *كيمياء السعادة*. بيروت: المكتبة الثقافية.

شافية غليظ. (2014). النفس والإنسان من منظور الدين وعلم النفس. *أبحاث نفسية وتربويّة*، 30-32.

وهبة الزحيلي. (2009). *التفسير المنير*. دمشق: دار الفكر.

يوسف الدجوي. (1914). *كتاب السعادة في فلسفة الأخلاق الدينيّة وأسرار الشريعة الإسلاميّة*. القاهرة: دار النهضة الأدبيّة.